استبداد لامرشدله إلا التعنت عن هوى
لاشرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غدا
استبداد يتمثل لنفسه بنفسه ،
تصادر به الاموال بغير حساب .
ويبطش المجرمون بالابرياء بغير عقاب ...
ذلك هو الاستبداد الذي نقصده في بحثنا »(ص ٨٨ ــ٨٩) .

الحريات بين الواقع والمرتجى

والملاحظ ان مؤلف « عبرة وذكرى »يقف الفصول التالية من كتابه على شرح الابعاد والصفات الملازمة لكل من الحرية والاستبداد على حد سواء .فهو يضع مقولة الحرية وبلاد الحرية على انواعها مقابل الاستبداد وبلاد الاستبداد في شتى أشكاله ومظاهره ، على طرفي نقيض . وإذا كانت طبيعة البلاد العثمانية تأبى الاستبداد ــ على حد قوله ، فان عهد الاستبداد إذا طال على الامة ، فليس من الجائز أو المستحسن إغراقها دفعة واحدة في مناخ الحرية وإطلاق العنان للحريات الاساسية . والسبب في ذلك يرجع الى استحكام الفوضى والى نشوء نوع من الاستبداد(استبداد الجماعات) هو اشد بلاء من استبداد الرجل الفرد .

والحريات التي يتحدث عنها البستاني ويعقد لكل منها فصلا في الكتاب هي التالية :

(١)**الحرية الشخصية** : « ان اول ما يحرص عليه المرء حرية شخصه . فلقد كانت لعهد مضى مطلقة يسرح المرء ويمرح أيان شاء ويخالط من شاء . ويقول ويعمل ما شاء ، مما لاينال سواه بأذى . »(ص٩٣)

ففي ظل الاستبداد الحميدي ظهر الوشاة الذين أحصوا على الناس حركاتهم وسكناتهم . فكانت الاعتقالات . والتصفيات(إلقاء الجثث في البوسفور) . وجرى نفي الاحرار وابعادهم(شقاء المبعدين الى اطراف السلطنة . لكن عصر الحرية في ظل الدستور كفيل بوضع حد لذلك الكابوس ،ويفتح المجال أمام المستقبل :« سيقوم منا في الغد جهابذة وفحول في العلم والسياسة والادارةوالقضاء ... ») (ص ٩٥) .

٢ ــ حرية الصحافة : اذا كانت الصحافة بمثابة الآلة الحيةالتي تنطق بلسان الامة وتنبه الافكار وترشد الى الاصلاح وتشير الى مواطن الخلل ، وتنادي حي على الفلاح ، فانها قد تحولت في ظل المراقبة الحميدية الى« ابواق تمجيد واغوال تهديد » وكان « التعطيل » هو السيف المسلط فوق راسها . حتى سئم الناس قراءة جرائد بلادهم . لقد خضعت الصحف الصادرة في البلاد العثمانية الى قيود واصطلاحات مفروضة . فالبستاني يتحدث عن شيء هو اشبه ما يكون بمعجم الالفاظ الكتابية الذي يتضمن قائمة الممنوعات والمخطورات :كالقانون الاساسي والقتل والخلع وما اشتق منه والجمهورية والديناميت والثورة والانصاف والحرية . والشورى والمجلس النيابي وغير ذلك من العبارات والاقوال المأثورة . مثل : العدل اساس الملك ، والظلم مرتعة وخيم والحرية منتهى غايات الامم (ص ٩٨) ان حرية الصحافة هي نعمة واسعة الانتشار في قلب افريقيا واقاصي اسيا . ولا يجوز حرمان العثمانيين منها ، وهم الذين الفوها منذ ٣٦ سنة وليسوا بحديثي العهد فيها . لا بل هي حق تمتعت به الامة على عهد الاسلاف فجاء الاستبداد الحميدي ليسلبها إياها . والبستاني يتحفظ تجاه إطلاق الحرية الى حد يفضي بها الى الفوضى المستحكمة في جرائد مصر خلال فترة من الفترات على حد قوله . إنه لا ينوي تجاوز الحد المعقول ، وجل ما يرمي اليه :« لا نطمع ولا نود ان نتخطى الآن الى ما وراء المعقول ، فنثب وثبة واحدة من وهدة المسكنة الاضطرارية الى قمة التهور الاختياري ، بل جل ما نتمناه ان تباح لنا رواية الاخبار وترديد صدى الافكار والنظر في شؤون انفسنا من القاء درس مفيد روحي مقترح جديد ونقد عامل وعمل والبحث في كل ما من شانه ان يلذ ويهذب ويفيد »(ص ١٠٢ ــ ٣)

(٣) **حرية التعليم** :يسجل البستاني درجة التقدم والرقي التي احرزها العلم والتعليم في البلاد العثمانية ، حيث« أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الاميين في كثير من الولايات »(ص ٤٠١) .